

# أنا أضحك، إذاً أنا إنسانيّ

## خاتمة بقلم شوهم سميت



### 1. حول القصة

الضحك الصحيّ لا يتوقّف فجأة. أنّه يجلجل، يخفت، يكتسب زخماً، يتجدد، بل إنه عندما يتوقف في نهاية المطاف، تحفر ذكراه في الجسد، في الابتسامة، في بريق العين وفي التجاعيد. التأثير نفسه تتركه في القارئ هذه القصّة القصيرة والثاقبة للكاتب زكرياً تامر، أحد أبرز الكتّاب السوريين، وأحد أعظم الكتّاب في العالم العربيّ في هذا اللون الأدبي. تنتهي القصة بضحك الأطفال الذي يواصل الجلجلة وإثارة التفكير: في الحرّية والقمع، في الطبيعة ومكان الإنسان داخلها، وفي الطفولة.

عن قراءة القصة في سياقها السياسيّ، باعتبارها استعارة تشكّل جزءاً من مجموعة قصص ثورية ألّفت كرد فعل على الحياة في ظل نظام قمعيّ، تستدعي التطرّق الى الملك على أنه يمثّل دكتاتورية – عابرة للدول والقارات – والتطرّق الى حظر الضحك كنوع من القمع السياسيّ وانتهاك لحرّية التعبير. علاوة على ذلك، نحن بصدد حظر يقع خارج صلاحيات الحاكم المألوفة، بل إنه خارج صلاحيات الطاغية، ويتضمن محاولة لتغيير العالم. قد يمثّل الأطفال المواطن الصغير أو أنهم يمثّلون أنفسهم، جيل المستقبل. أما بالنسبة الى مغزى ضحكهم، فينبغي تفسيره على أنه ضحك ساذج يطلقه أطفال، بينما تظلّ الإمكانية بأن شكوك الملك مبزّرة، وأنّ الأطفال بالفعل يسخرون منه ومن تبجحه قائمة بموازاة ذلك، لأنه في نهاية الأمر، الطغاة هم محطّ سخرية.

لكن هذه الاستعارة تقدم للقراء أكثر من ذلك. يمكننا أن ننحّي القراءة السياسية جانباً للحظة، وأن نقرأ القصة باعتبارها استعارة للكبار والأطفال، ولحكمة الطفولة الخفية. في هذه القصة، خلافاً للمعتاد، لا يُصوّر الأطفال على أنهم ضعفاء، هم كثر والملك واحد. إنهم يلعبون ويضحكون، وهو الغريب، الذي لا يمكنه أن يضحك، أو حتى أن يفهم – بحقّ الجحيم – ما المضحك بهذا القدر في سماء زرقاء، وأشجار خضراء، وعصافير محلّقة – هذه هي طبيعة العالم. في الواقع، من الممكن أنه في هذه المرحلة من الحكمة، عندما يشعر الملك بالإحباط إزاء الأطفال الذين يضحكون ضحكا لا تفسير له في نظره، فإنه قد يثير تعاطف كلّ قارئ بالغ، ذي منطق سليم، وكذلك تعاطف كلّ شخص مرّ بتجربة وقوفه منفرداً أمام مجموعة تضحك، من دون أن يفهم لماذا وعلى ماذا يضحكون، كما سيتعاطف معه بالطبع كل من ساوره شك في أنه هو نفسه محطّ السخرية.

لكن هذا التعاطف يخفي دفعة واحدة – كما يصبح الضحك رعباً – عندما يسيء الملك استخدام القوة والسلطة ويحظر على رعاياه القيام بما حرم منه. يوجّه الراوي نظر القارئ الى السماء والأشجار والطيور. يضعه الى جانب الملك، كالفاعل وسط الدائرة بلعبة "طاق طاق طاقيّة"، لدرجة أن القارئ نفسه يشعر بأنه محطّ سخرية الكاتب – وهو أيضاً، لا يفهم ما، بحقّ الجحيم، المضحك إلى هذا الحد هنا؟! إنّها لحظة اغتراب رهيبية ومهدّدة، ومع ذلك، وربما بسبب السخرية والحرص – قد يشعر القارئ بدغدغة ضحكة، أو حتى أنه قد ينفجر بضحك فظ وفوضوي، ضحك

هو غاية في حد ذاتها، ولا حاجة الى تفسيره. الضحك، كما تخبرنا الاستعارة، طبيعي وضروري – تماما كالسما والاشجار والطيور.

الطبيعة المحدودة للاستعارة تكشف القليل وتخفي الكثير. نحن نعلم أن الملك لم يضحك كملك، ولكن ربّما ضحك كطفل؟ هل يمكن أن تكون هذه اللحظة، الصادمة، التي وقف فيها أمام ضحك الأطفال الذي لا يمكن تفسيره، هي التي أسست طغيانه وأمانت، نهائيا، إنسانيته؟ هل يمكن أن يكون استبداده هو ما جعله يفسّر إجابات الأطفال الساذجة على أنها تحد وإهانة، وهو الذي أملى المرسوم الظالم والمتطرف في سلسلة المراسيم التي فرضها على رعاياه؟ ليس هذا هو الضحك المر الذي يصدر عن اليائسين، إنه الضحك البريء، لأولئك الذين من أعالي قاماتهم القصيرة، وفي خضم الأيام المظلمة التي يهيمن فيها طموح الطاغية لتغيير قوانين الطبيعة، ما زالوا يرون سماء زرقاء وأشجارًا خضراء وطيورًا محلقة. إنها ضحكة صافية، رائعة ومُعديّة.

## 2. عن زكريا تامر وأسلوبه

اللقاء مع أسلوب زكريا تامر مفاجئ، بل مثير للدهشة. قصصه مثيرة للدهشة في قصرها، بساطتها وعمقها. يفاجئنا أسلوبه البلوريّ، الشعريّ الحديث جدًّا، وتفاجئنا جرأته وشجاعته. لكن الأكثر إثارة للدهشة من أي شيء آخر، هو أنّ أديبًا رجلاً ومفكرًا، قد كرّس حوالي عقد من سنوات عمره للكتابة للأطفال، ولم يعتبر الطفل صحيفة بيضاء، الهدف من الأدب هو تربيته ليكون مواطنًا مطيعًا ومفيدًا. بالنسبة إليه، الأطفال هم مواطنو المستقبل، أفكارهم غضة وخالية من الامتثال والانصياع. أودّ أن أشير في هذا المقام إلى أنّ النمرور في اليوم العاشر، القصة التي منحت اسمها لمجموعته القصصية الخامسة، والتي منحت مكانة رسمية في العالم العربيّ (النمرور في اليوم العاشر (قصص)، دار رياض الرئيس للكتب والنشر، 1978) صدرت سابقاً بصيغة للأطفال، وكذلك بالنسبة إلى الأولاد يضحكون التي أدرجت في المجموعة نفسها. كلتا القصّتين، مثل العديد من قصصه، هما استعارتان لمحاولة نظام شموليّ لترويض رعاياه على الطاعة.

ولد زكريا تامر عام 1931 في دمشق لعائلة من الطبقة المتوسطة-الدنيا. عند بلوغه سنّ الثالثة عشرة عامًا اضطرّ إلى ترك دراسته للمساعدة في إعالة الأسرة، فعمل "صبيًا" عند حداد. نال تعليمه من خلال الدراسة المسائية. وبتأثير الوضع الاقتصاديّ الصعب الذي ألمّ به، توجه إلى الكتابة كوسيلة لكسب الرزق. نُشرت قصصه الأولى في أواخر الخمسينيات، تلتها إحدى عشرة قصة قصيرة، ومجموعتا مقالات ساخرة، وحوالي مائة قصة للأطفال. في الوقت نفسه، كان يعمل محرّرًا لمجالات، بما في ذلك مجلة للأطفال، كما شغل مناصب رسمية في وزارة الثقافة السورية، بل إنّه وبصورة لا تُصدّق، شغل منصب الرقيب (في وقت لاحق قال إنّ شغلّه لهذا المنصب منحه القدرة على تطوير كتاباته، بحيث لا يُحظر نشرها).

في عام 1980 عندما بدأ من خلال عمله محرّرًا لمجلة المعرفة، وهي مجلة وزارة الثقافة السورية، ينشر في المقالات الافتتاحية مُقتبسات من كتاب **عن طبيعة الطغيان**، من تأليف عبد الرحمن الكواكبي، وهو المفكر الذي كان له تأثير هائل في كتاباته، أقل من منصبه وتمّ تضيق الخناق عليه، حتّى اضطرّ إلى الجلاء إلى لندن، حيث واصل هناك عمله ككاتب ومحرّر. نال زكريا تامر جوائز هامة كما حظيت مؤلفاته بترجمات إلى العديد من اللغات. صدر له مترجمًا إلى العبرية **نمر من ورق** (إصدار دار النشر ريسلينج، 2013)، مجموعة مختارة من أعمال تامر، ترجمة وتحرير ألون فراجمان، الذي ترجم أيضًا القصة التي بين أيديكم.

لاحظ تامر الفرص التي تجسدها حالة القراءة الأسرية، واستغلّها للتوجه إلى أولياء الأمور الذين جعل منهم الغاية الخفية لتوجهه؛ كما لاحظ الإمكانية التي توفرها حلبة أدب الأطفال كحيز خالٍ من الرقابة (في الوقت الذي يتم فيه فحص أيّ نصّ أدبيّ من قبل الرقيب الحكومي)، وهو الحيز الذي يمكن فيه التعبير بحرية نسبية، وذلك بفضل موقعه على الهامش البعيد للثقافة. من الصعب ضبط النفس وألا نضيف أنّ النظرة المستهترّة إلى أدب الأطفال، تصوّره على أنّه أداة تعليمية، إدراجه

في مجال التربية والتعليم، وانعدام الاهتمام به من جانب المجتمع الأدبي، لا يقتصر على سوريا أو العالم العربي فحسب، بل إنها سمة من سمات وضع الثقافة في إسرائيل والغرب أيضًا.

**الأولاد يضحكون** هو أول كتاب أطفال سوري يُترجم إلى العبرية. إلى جانب ترجمة ألون فراجمان، اخترنا تقديم النصّ بلغة الأصل، حتى يتسنى للناطقين باللغة العربية قراءة النصّ الأصليّ أيضًا، وللتأكيد على أن اللغة العربية هي لغة رسمية في دولة إسرائيل. إننا نعتبر وضع السطور العبرية بجوار السطور العربية، تصريحًا بشأن أهمية اللقاء الثنائي اللغة والثنائي القوميّة في الحيز الإسرائيلي الفلسطيني. إنها لفئة بسيطة، الهدف منها تأكيد حضور اللغة العبرية التي تتعرّض لهجمات عدوانية، على صعيدي الدعاية والتشريع، ويتم محوها تدريجيًا من الحيز العام. من المهمّ أن نتذكّر أنّ اللغة العربية هي لغة الأم لجزء معتبر من مواطني الدولة: هي لغة الأقلية الأصلانية الفلسطينية ولغة الآباء لليهود العرب.

نحن، مثل زكريّا تامر، نريد أن نتوجه إلى القراء الشباب، جيل المستقبل المنفتح إلى تغيير هذا الواقع المحزن. أملين أن يأتي يوم، وليس في آخر الزمان، تصدح فيه أفواه الجميع بنغمات اللغة العربية، وتتذوق سماعها بشكل طبيعيّ كلّ الأذان، كما الأشجار والسماء والضحك.

